

المرأة المغاربية من خلال كتب الرحلات في العصور الوسطى الإسلامية*

ذ. محمد العيناوي

اهتمت مصادر التاريخ الإسلامي بمسألة المرأة لكن درجة هذا الاهتمام اختلفت باختلاف أنواع المصادر فكتب الحوليات مثلا، انصب اهتمامها على نوع خاص في النسوة اللواتي كان لهن دور في توجيه مجرى الأحداث التاريخية، أو بعبارة أفضل اهتمت بتاريخ الارستقراطية العربية الإسلامية بكلا جنسيها، في حين وردت إشارات نادرة حول ما يسمى بالعامة أو الطبقة العريضة من المجتمع، والسبب جد واضح هو أن المؤرخ نفسه، كان أحد أفراد هذه الطبقات. لهذا، كان لزاماً على الباحث أن يستقصي أخبار المرأة العربية من مصادر أخرى غير رسمية وفي غالبيتها شخصية مثل كتب المسالك والرحلات التي قام بها مؤلفو هذه الكتب.

إذن ما موقع المرأة "العربية" المغاربية من خلال المادة المصدرية الواردة في كتب المسالك والرحلات، ولحصر البحث الذي يبدو أنه يتطلب كثيرا من الوقت، بدا من المنطقي البحث العلمي، الاكتفاء بمصدر واحد فقط، هو المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، لصاحبه العلامة (أبي عبيد البكري). لماذا هذا الأخير :

- يظهر عادة، وما تقتضيه ضرورة البحث العلمي المتخصص، بكون الباحث عند قراءته للمصدر، ينتقي ما له علاقة ببحثه الذي هو بصدد الأشغال فيه،، في حين يمر مر الكرام عن مادة أخرى لا تمت بصلة للحقل الذي يشتغل فيه، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن موضوع الندوة التي نحن بصددها اليوم، كانت حافزا للباحث في التاريخ الوسيط المغاربي إلى العودة مرة ثانية لقراءة هذه المصادر. ولهذا أشكر اللجنة المنظمة لهذه الندوة لأنها دفعتني إلى الرجوع إلى ما قرأت منذ 10 سنوات، والحقيقة أن المرأة التي نتكلم عليها من هذه المنصة

(*) تم استخلاص هذا الموضوع من الشريط الصوتي لأننا لم نتوصل بنص المداخلة.

كانت مظلومة مني كذلك، كباحث!! لأنني عندما اعتمدت في بحثي للدراسات العليا حول النشاط البحري على المصادر الإسلامية، كنت أمر مر الكرام على النصوص التاريخية، التي تتحدث عن المرأة، وكنت أعتبرها متنفسا لي يعبر عن ذلك المخزون النفسي الذي يوجد في نفس كل شخص مغربي إسلامي، هذا من جهة ومن جهة ثانية يبدو أن نسوة الاستاذة بلكامل البيضاوية لهن حظوظ. وعلينا أنا وأنتم أن نندب حظنا لأن الأستاذة رافقت عرضها بالصور لأنك تستطيع أن تشاهد، لكن بالنسبة لي اعتمدت على النصوص والنصوص تحتمل أكثر من تأويل وأكثر من تخريج، لهذا كان اقتصاري في إعداد هذه المداخلة على كتاب واحد هو كتاب أبي عبيد البكري. وقد يتساءل المستمع كيف يأخذ الباحث مؤلفا واحدا لرجل لم يغادر الأندلس قط في حياته، مع أن كتابه كتاب رحلة أو مسالك؟ الجواب سهل، لقد توفر لهذا الشخص من الكتب المصادر ما استطاع أن ينقل منه الشيء الكثير وأن يزودنا منها بطريقة أو بأخرى وعبر مراحل هذا الكتاب بنصوص تعلقت بالمرأة، لابد من إعادة قراءتها بتأني، إذن ما هي التقنية التي يجب أن نتعامل بها اتجاه هذه النصوص؟ يبدو أن المشتغلين بالتاريخ الإسلامي وأغلبها كتب أرخت الارستقراطية، وعندما أتكلم عن الارستقراطية أتكلم عنها بجنسيها في حين كان الوزن الأكبر للرجل والوزن الأقل للمرأة كزوجة للسلطان أو الخليفة أو غير ذلك...

إذن انطلاقا من هذه الفكرة توجهت إلى هذا المصدر لربما أصادف في طريقي وأنا أسلك معه الطرق التي سلكها الظواهر الاجتماعية أو الأنتروبولوجية التي تفيدني على الأقل في كشف اللثام عن أنواع الحياة التي كانت تصادفها هذه المرأة المغاربية من مصر إلى حدود طنجة. إذن فالدراسة حاولت تقصي المنهج التالي : قراءة كل النصوص ثم تصنيف هذه النصوص ثم اخراج الصورة، لماذا لأن المؤلف عندما كتب نقل وعندما نقل نقل صورة شخص ما، وبالتالي هذه الصورة يمكننا أن نحصرها في أنها صورة إيجابية أو سلبية عن المرأة في هذه المرحلة. وتجدر الإشارة إلى أن عددا كبيرا من الرحالة قد أسهموا إسهاما إيجابيا بتقديم معلومات مفيدة ومعرفة بالشعوب التي لم تكن متوفرة من قبل.

أيا كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها والخفية، فقد اتصف أغلب الرحالة ولو بدرجات متفاوتة ـ بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم. هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلي في الدراسات الاثنوغرافية بالمعنى الحديث. الأمر الذي يجعلنا نعالج هذا الموضوع بالنظر في أعمال بعض الرحالة القدامى ـ البكري ـ ... باعتبارهم إثنوغرافيين وإن كانوا غير متخصصين أو مدربين أساسا على هذا النوع من الدراسة في زمننا هذا. ولم يكن هدف الرحالة الرحلة في حد ذاتها بل إنها

قدمت مادة ثرية دليلا بارزا على قيمة رحلتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها أو أقاموا فيها، وعن طبائع أهلها ومعالم حضارتهم وهذا يشكل جوهر العمل الاثنغرافي.

هذا ولا يقتصر الأمر على كون هؤلاء الرحالة اثنوغرافيين، وإنما نجدهم - أو نجد بعضهم على الأقل - قد برزوا أيضا كأدباء وأن مادة رحلاتهم قد زخرت بالعناصر الأدبية هذا وقد درج الكتاب العرب على استخدام عبارة «أدب الرحلات» للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أحداث تجوالهم ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه ونظرا لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حدا كبيرا من الدقة في عملية الوصف البشري.

نرى في الرحلة نوعا من الحركة، والحركة ولود، وهي أيضا مخالطة للناس والأقوام. وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محدودة. أما عن المادة المصدرية المتعلقة بالمرأة المغاربية من خلال المؤلف فهي :

أ - الناحية الكمية : تخلل موضوع المرأة حوالي أربعين نصا من الكتاب كله، واختلفت أحجام النصوص المذكورة، باختلاف أهمية الموضوع الذي جاء به أبو عبيد البكري، ولاشك أنه انفرد بهذه الخاصية الاجتماعية، عن سابقيه وربما عن من جاءوا بعده باستثناء محمد حسن الوزان المعروف بالافريقي الذي نحى منحى آخر عن سابقه أبي عبيد البكري.

ب - تصنيف المادة المصدرية : يتضح جليا أن النصوص التي كان موضوعها المرأة، اختلفت مضامينها من نص لآخر، وإن كانت هناك بعضها تجمع بين نفس المضمون، وبعملية إحصائية بسيطة يبدو طغيان العامل الأخلاقي عليها، مثلا : ص. 33، 58، 102، 184، 185، 186، 187، ويمكن حصر مواضيع هذه الظاهرة في : الخيانة الزوجية، والمواربة التي هي متعارفة عند كل أهل غمارة، بل ويفتخر بها نساؤهم، بل تعتبر من خصائص الكرم «ولا يتم إكرام الضيف عندهم إلا بأن يؤنسوه بنسائهم الأيامى منهن... ولا يتركون ذا عاهة ليستقر ببلادهم ويقولون أنه يفسد النسل وهم يرغبون في الرجل الجميل الشجاع.. إلى غير ذلك من وجوه الخيانة مثل قصة الشيخ، والشاب وزوجة الشيخ والكلب، واحتكامها إلى قاضي قلعة حماد، وقصة الرجل الذي كانت له امرأتان ووشاية الأولى بالثانية في علاقتها مع رجل آخر، والتي انتهت قصتها بقتلها وانتقام الزوج لها بطريقة عجيبة. ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بعامة القوم بقدر ما كانت كذلك متفشية في كبرائهم حسب رواية البكري ص. 185-186، والتي كان مصيرها

نفس المصير الذي لقيته الزوجة التي سبق ذكرها، إذ قتلها زوجها الثاني الذي تزوجته، وقتل هو كذلك على أيدي أهلها. وفيما يتعلق بالعامل الجمالي : يتضح أن هذه الظاهرة، لفتت انتباه المؤلف، واشتد اهتمامه بها، حتى أنه ذكرها في أكثر من مرة ص. 110 - 116 - 124 - 125 - 127 - 140 - 158 - 162 - 169 - 175، ونذكر بعضها على سبيل الدلالة، فسكان برغواطة، كنوا أجمل الناس رجالا ونساء، كانت الجارية البكر منهن تثب ثلاث حمر مصطفة، ولا يمس ثوبها شيئا من الحمر ولا تقدر على ذلك ثيب، وهذا دليل على قوة بنية المرأة البكر عندهن.

في حين نجد تامدلت كانت بها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منتنيات القدود، لا تنكسر لهن نهودا، لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقات الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا. ولم يقف عند هذا الوصف بل استرسل فيه : أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها وكذلك يفعلن في أكثر حالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن ورأى ولدها طفلا يلاعبها فيدخل تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها.

يبدو أن الصورة التي جاءت في كتاب البكري هي صورة تعكس لنا بعض الظواهر التي لازالت إلى حدود الان متعايشة وذلك في استعماله لبعض قياسات الجمال فمثلا انطلاقا من النص نلاحظ أن الجمال ورد كنموذج في البصرة (بصرة المغرب) التي كان يرى فيها البكري أنها كانت موصوفة بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن يقول :

ونساء البصرة مخصوصة بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن.
قال أحمدبن فتح المعروف بابن الجزاز التاهرتي يمدح أبا العيش بن ابراهيم بن القاسم :

قبح الإله اللهو الاقينة ... بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في ... وجناتها والكشح غير مناض
تاهرت انت خلية وبرية ... عوضت منك ببصرة فاغتاض

صورة أخرى للمرأة في كتاب البكري وهي صورة المرأة الأسطورة، المغامرة ويمكننا أن نمثل لذلك بالنص التالي :

فإذا هي امرأة سوداء عظيمة الخلق مفرطة الطول والعرض لا يفقه منها كلمة فكلموها بكل لسان علم هنالك فلم تجاوب منهن أحدا فبقيت عندهم أياما يأتمرون في أمرها ثم اتفقوا على إرسالها وركوب النجب والخيل في إثرها إلى أن يقفوا منها ومن موضعها على حقيقة خبر فلما أرسلت لم يكن طرف العين يلحقها وفاقت شأو النجب والخيل ولم يقف أحد من أمرها على حقيقة.

نجد في هذا النص خيالا أسطوريا لعبت فيه المرأة دورا كبيرا لازال إلى حدود الآن يلعب

فينا نفس الدور عندما نحاول أن نضع ما يسمى حفريات أركيولوجية لمخزوننا النفسي هذا من جهة ومن جهة ثانية يذهب البكري بعيدا كذلك حينما يتحدث عن كنزة الادريسية وعن دورها في تسيير الأمور السياسية، طبعا عندما نريد كتابة تاريخ المرأة المغاربية لابد وأن نشير إلى أمثال هذه النماذج يقول عن سجلماسة :

«ووليها ابنه محمد بن المعتز إلى أن توفي سنة 331 هـ ووليها ابنه أبو المنتصر سمغو بن محمد وهو ابن ثلاث عشرة سنة تدير أمره جدته» طبعا المقصود بها كنزة، أكثر من هذا يضيف الحديث عن بعض الظواهر الاجتماعية الطبيعية التي قد تبدو لنا أنه يصعب تفسيرها لأنه عندما يتكلم عن أهل السوس على أنهم أكثر تجارة، لكن هل ساهمت المرأة في هذه التجارة فالنص يقول : «وأهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب...». طبعا التحرف والتكسب لا يعني التسول لأنه كما قال الحطيئة : "التسول تجارة لن تبور".

هذا من جهة، من جهة ثانية يطرح البكري ما يمكن أن يسمى موضوعا عاما عن الجنس حينما يذكر نموذج الحاكم الذي تطرح عليه القضية فيراجع هنا مرة ثانية تجربته الماضية ويستعمل القياس، وعندما أقول القياس بنوع من الذكاء يقول : (ذكروا أن رجلا شيخا خرج مع امرأته وكانت شابة يريد قلعة حماد فصحبه في بعض الطريق فتى شاب كلف بتلك المرأة وكلفت به فتواطيا على أن يدعى كل واحد منهما زوجية الآخر وليسقطا الشيخ فلما وصلا إلى القعلة شكى ذلك الشيخ إلى حماد ما دهمه من أمرها ووصف له حاله معها فوقف حماد الشاب والمرأة فتقارا على نكاحهما وأنكرا ما يدعيه الشيخ فجعل حماد يباحث الشيخ هل صحبهم في طريقهم أحد أو هل له شبهة فقال ما صحبنا في طريقنا غير هذا الكلب فأمر الشيخ بربط الكلب إلى تمر أو وتد كان هناك ثم أمر المرأة بحله فذهبت إليه فأرسلته ثم أمرها فربطته والكلب لا ينكر شيئا من ذلك ثم قال للشاب : قم فأرسل الكلب ثم اربطه فلما هم بذلك نبحه الكلب وأنكره فقال للمرأة هذا زوجك الشيخ وهذا الفاسق يخلفك عليه وأمر بضرب عنقه).